من أسـرار النظم القرآنى
فى قصة نوح عليه السلام مع أبنائه

دكتورة
أمينة سـليم
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنات الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ،

فقد استخرت الله فى أن أكتب موضوعاً لحولية كليتنا الغراء فوقع نظرى على قصة سيدنا "نوح" عليه السلام مع أبنائه فى القرآن الكريم، والتى تمثل الطاعة والعصيان بين الآباء والأبناء، فتوجهت إلى كتاب الله أدقق فى الآيات التى وردت فى سورة هود بشأن "نوح" عليه السلام وأبنائه بين من أطاعه وركب معه فى السفينة امتثالاً لأوامر الله فنجا، ومن عصاه فحق عليه العذاب بالغرق كما وعدهم الله بذلك.

وسورة هود مكية آياتها ثلاث وعشرون ومائة تعنى بأصول العقيدة الإسلامية "التوحيد" وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبى عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من أذى المشركين، لا سيما بعد تلك الفترة التى مرت عليه بعد وفاة عمه "أبى طالب" وزوجه "خديجة" رضى الله عنها فكانت الآيات تتنزل عليه وهى تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء، ليتأسى بهم فى الصبر والثبات[1].

(١) صفوة التفاسير حـ٥ ص ٧٦ أ. محمد على الصابونى – ط دار القرآن الكريم بيروت.

ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن الكريم الذى أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، لأنه تنزيل الحكيم العليم، ثم عرضت لعناصر الدعوة الاسلامية عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين، فريق الهدى وفريق الضلال، وضربت مثلاً للفريقين وضحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين، وفرقت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور.

ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة "نوح" عليه السلام أب البشر الثانى، لأنه لم ينج من الطوفان إلا "نوح" والمؤمنون الذين ركبوا معه فى السفينة وغرق كل ما على وجه الأرض، وهو أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاءً وصبراً، فقد عاش ألف سنة إلا خمسين عاما[1].

وورد فى فضل سورة هود أحاديث كثيرة مما يدل على خطرها وعظم ما اشتملت عليه وأشارت إليه، عن ابن عباسى قال: "قال أبو بكر رضى الله عنه، يا رسول الله قد شبت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، شيبتنى هود[2].

وقد قامت هذه الدراسة فى آيات الطاعة والعصيان بين "نوح" عليه السلام وأبنائه، دراسة بلاغية على التحليل من الناحية اللغوية والنحوية، وكان للقيم البلاغية نصيب وافر فيها أيضاً.

والله أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير وخدمة العلم والدين، آمين يا رب العالمين.

عليه توكلت وإليه أنيب،،

---

(١) روح المعانى حـ١١ ص ٢٠٢ للألوسى ط دار إحياء التراث بيروت.
(٢) الترمذى ص ٧٦.

قال تعالى:

"وأوحىً إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون[٣٦] واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون[٣٧] ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون[٣٨] فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم[٣٩] حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل[٤٠] وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم[٤١] وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين[٤٢] قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموجب فكان من المغرقين"[٤٣] وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين[٤٤] ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين[٤٥] قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين[٤٦].

(٣٦ - ٤٦ هود)

الأفكار الأساسية التي اشتملت عليها الآيات من (٣٦-٣٩) هي:

١ – الوحى بعدم إيمان قوم نوح عليه السلام، إلا الفئة التى اختارها الله سبحانه وتعالى للركوب فى السفينة وهم الذين نجوا من الغرق لطاعتهم أوامر الله.

٢ – تطييب خاطر نوح عليه السلام، من الحق تبارك وتعالى بعدم التيئيس والحزن، بما يفعله هؤلاء القوم.

٣ – الأمر بصناعة الفلك بعناية الله ورحمته ونزول الوحى بذلك، فقد تكفل الحق تبارك وتعالى بتعليمه هذه الصنعة.

٤ – النهى عن التشفع عند الله لهؤلاء العاصين، فإنه محكوم عليهم بالغرق مسبقاً.

٥ – استجابة نوح عليه السلام لأمر الله، وأخذ يصنع الفلك فى برية، مما أثار سخرية الملأ من قومه، فما كان منه عليه السلام أن رد كلامهم بمشاكلة لفظية من جنس سخريتهم له.

٦ – رد نوح عليه السلام على قومه فى أسلوب حكيم كما فى قوله تعالى: (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم).

"وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون".

(٣٦ هود)

التحليل والدراسة والصور البلاغية

(وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) إقناط[١] له عليه السلام من ايمانهم واعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه.

يا "نوح" أنه لن يؤمن ... الخ والمراد بمن آمن قيل: من استمر على الإيمان، وللدوام حكم الحدويث وقيل: المراد من قد استعد للإيمان وتوقع منه ولا يراد ظاهره وإلا كان المعنى إلا من آمن فإنه يؤمن وقد يقال: المراد ما هو الظاهر والاستثناء هنا وزان الاستثناء فى قوله تعالى: **(وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف)** فيفيد الكلام على أتم وجه وأبلغه، أى لن يحدث من قومك إيماناً ويحصله بعد إلا من قد أحدثه.

وحصله قبل، وقد ذكر الألوسى[٢] ما جاء فى الحواشى الشهابية فقال: لو قيل: إن الاستثناء منقطع وأن المعنى لا يؤمن أحدُ بعد ذلك غير هؤلاء لكان معنى بليغاً.

ويضيف الزمخشرى بقوله: وإنه كالمحال الذى لا تعلق به للتوقع.

---

(١) روح المعانى حـ١٢ ص ٤٨.

(٢) نفس المصدر جـ ١٢ ص ٤٨.

(فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لا تلتزم البؤس ولا تحزن بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد حان وقت الانتقام منهم، والقيمة البلاغية لهذا التعبير من الحق تبارك وتعالى المؤانسة وشد الاعتناء بالمتحدث عنه.

فى قوله تعالى: (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) أسلوب خبرى وأنه ضمير الشأن والواقع، والسر البلاغى الكشف لنوح عن حقيقة غيبية لا يعلمها إلا الله، والنفى على التأبيد، وفيها أسلوب قصر من قصر الصفة على الموصوف وطريقة النفى والاستثناء وهو أبلغ طرق القصر وأقواها لأنه يستعمل فى أحكام يجهلها المخاطب وقد تؤكد له الافكار فى أبلغ صورة حيث سبق بأن الموكدة.

وقد عطف بين الجملتين بالفاء الترتيبية التعقيبية فى قوله: (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) ثم جاء التعبير بالجملة الفعلية فى قوله: (يفعلون) لاستحضار الصورة فى حكاية الحال الماضية.

"واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون".

(٣٧ هود)

التحليل والدراسة والصور البلاغية

(واصنع الفلك بأعيننا) عطف على (فلا تبتئس) وصل بين الجملتين لاتفاقهما فى الفعلية والانشائية بين الأمر والنهى، وهو ما يعرف بالتوسط بين الكمالين.

والأمر هنا فى قوله (واصنع) حقيقى، لأنه صادر من أعلى إلى أدنى، إذ لا سبيل إلى صيانة الروح من الغرق إلا به، فيجب كوجوبها، وقيل للإباحة وليس بشئ[1].

وال فى (الفلك) إما للجنس أو للعهد بناء على أنه أوحىٌ إليه عليه السلام من قبل أن الله سبحانه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشئ يصنعه بأمره تعالى من شأنه كيت وكيت واسمه كذا، والباء فى قوله (بأعيننا) للملابسة، والجار والمجرور فى موضع الحال من الفاعل، والأعين حقيقة فى الجارحة وهى جارية مجرى التمثيل، كأن لله سبحانه أعيناً تكلؤه من تعدى الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة، والجمع فى (أعيننا) للمبالغة وإضافة (نا) إضافة تعظيم، وقد انسلخ عنه لإضافته على ما قيل: معنى القلة وأريد به الكثرة وحينئذ يقوى أمر المبالغة، وزعم بعضهم أن الأعين بمعنى الرقباء وأن فى ذلك ما هو أبلغ أنواع التجريد، وذلك أنهم ينتزعون من نفس الشئ آخر مثله فى صفته مبالغة

(١) روح المعانى حـ١٢ ص ٤٩.

بكمالها كما أنشد أبو على:

أفات بنو مروان ظلماً دماءنا

وفى الله إن لم يعدلوا حكم عدل

وقد جرد ههنا من ذات المهيمن جماعة الرقباء وهو سبحانه الرقيب نفسه، وقيل: إن ملابسة العين كناية عن الحفظ وملابسة الأعين لمكان الجمع كناية عن كمال الحفظ والمبالغة فيه، ونظير ذلك بسط اليد وبسط اليدين، فإن الأول كناية عن الجود والثانى كناية عن المبالغة فيه، وجوز أن يكون المراد الحفظ الكامل على طريقة المجاز المرسل لما أن الحفظ من لوازم الجارحة، وقيل: المراد من أعيننا ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك، والجمع حينئذ على حقيقته لا للمبالغة. يقول صاحب روح المعانى: وفى الدر المنثور عند الكلام على هذه الآية، أخرج البيهقى عن سفيان ابن عيينة قال: ما وصف الله تبارك وتعالى به نفسه فى كتابه فقراءته تفسيره ليس لأحد أن يفسره بالعربية ولا بالفارسية[1].

(ووحينا) وإنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع، أخرج اسحق بن بشر، وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه عليه السلام لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى إليه، وقد أضاف (نا) إلى الوحى إضافة تشريف وتعظيم.

الخبر وفيه: أن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام فعلمه صنعتها، وقيل:

(١) روح المعانى حـ ١٢ ص ٧ وانظر الكشاف المجلد الثانى ص ٢٦٨.

كانت الملائكة تعلمه[١].

(ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) أى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم، لأنهم ظلموا أنفسهم بالعصيان، وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعنى فيهم، وحيث كان فيه ما يلوح بما يستتبعه أكد التعليل فقيل: (انهم مغرقون) أى محكوم عليهم بالاغراق[٢].

وقد جرى بـه القضـاء وجف القلم فـلا سبيل إلـى كفـه، والظـاهر أن المراد من الموصول من لم يؤمن من قومه مطلقاً، وقيل: المراد واعلة زوجـه وكنعان ابنه وليس بشئ.

نجد بين الجملتين (واصنع – ولا تخاطبنى) وصلا للاتفاق فى الانشائية والفعلية، وهذا الموضع يعرف بالتوسط بين الكمالين، وقد وقع بين الأمر والنهى.

والنهى فى (ولا تخاطبنى) حقيقى لأنه مـن أعلـى إلـى أدنـى، وقد جاء قولـه: (إنهم مغرقون) مؤكداً بإن واسمية الجملة، ونوح عليه السـلام لـم يكـن متردداً فى الحكم، ولكن لأنه محكوم عليه بالاغراق لا محالة، وسر الفصل الاستئناف البيانى لأنه جواب عن سؤال مقدر تقديره وما حكم هؤلاء؟ تكون الاجابة (انهم مغرقون).

"ويصنع الفلك وكما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قـال إن تسـخروا منـا فإنا نسخر منكم كما تسخرون". (٣٨ هود)

---

(١) روح المعانى حـ ١٢ ص ٤٩.

(٢) الكشاف حـ ٢ ص ٢٦٨، وروح المعانى حـ ١٢ ص ٤٩.

التحليل والدراسة والصور البلاغية:

(ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة، وقيل: تقديره، وأخذ أو أقبل يصنع الفلك، هذا وفي التعبير بيصنع - ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالاً من ضميره، أعني قوله تعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أى استهزأوا به لعمله السفينة.

ويذكر صاحب روح المعانى وجودها لهذه السخرية[1].

١ - إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه، ويشهد لعدم معرفتهم ما روى عن ابن عباس أنه عليه السلام حين قال الله تعالى له: (اصنع الفلك) قال: يا رب وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجرى على وجه الماء، قال يا رب: وأين الماء؟ قال: إنى على ما أشاء قدير.

٢ - وإما لأنه عليه السلام كان يصنعها فى برية بعيدة عن الماء وكانوا يتضاحكون ويقولون: يا نوح صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً، وهذا مبنى على أن السفينة كانت معروفة بينهم.

(وكل) منصوب على الظرفية، و(ما) مصدرية وقتية، أى كل وقت مرور، والعامل فيه جوابه وهو (سخروا) وقوله سبحانه:

(قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم) استئناف بيانى كأن سائلاً سأل فقال: فما صنع نوح عليه السلام عند بلوغهم منه هذا المبلغ؟ فقيل: قال: (إن تسخروا

(١) روح المعانى حـ١٢ ص ٥٠ وانظر الفتح القدير للشوكانى حـ٢ ص ٤٩٧.

منا) لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص من العذاب (فإنا نسخر منكم) لما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة، ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى، والتعرض لأسباب سخط الله تعالى التى من جملتها سخريتكم منا واستهزاؤكم بنا، وإطلاق السخرية عليهم حقيقة وعليه عليه السلام للمشاكلة لأنها لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، وفسرها بعضهم بالاستجهال، وهو مجاز مرسل لأنه سبب للسخرية، فأطلقت السخرية وأريد سببها.

وقيل: إنها منه عليه السلام لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح فلا حاجة لارتكاب خلاف الظاهر، وجمع الضمير فى (منا) إما لأن سخريتهم منه عليه السلام سخرية من المؤمنين أيضاً، أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضاً إلا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه السلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاه فى قوله: (نسخر منكم) فتكافأ الكلام من الجانبين، والتشبيه فى قوله تعالى: (كما تسخرون) إما فى مجرد التحقق والوقوع، وإما فى التجدد[1] والتكرر حسبما صدر عن ملأ بعد ملأ، وقيل: لا مانع من أن يراد الظاهر ولا ضرر فى ذلك لحديث الجزاء، ومن هنا قال بعضهم: إن فى الآية دليلاً على جواز مقابلة نحو الجاهل والأحمق بمثل فعله ويشهد له قوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها)، (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى غير ذلك، والظاهر أن كلا الفعلين واقع فى الحال[2].

(١) فتح القدير للشوكانى حـ ٢ ص ٤٩٧.
(٢) روح المعانى حـ ١٢ ص ٥١.

"فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم"

(٣٩ هود)

التحليل والدراسة والصور البلاغية:

(فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) أى يفضحه، أو يذله، أو يهلكه، وهى أقوال متقاربة، والمراد بذلك العذاب الغرق، (ويحل عليه) حلول الدين المؤجل والحق اللازم الذى لا انفكاك له عنه(١).

(عذاب مقيم) أى دائم وهو عذاب النار.

(من) عبارة عنهم، وهى موصولة فى محل نصب مفعول للعلم، وهو بمعنى المعرفة فيتعدى إلى واحد.

وقيل: إن (من) استفهامية مبتدأ، والجملة بعدها خبر، وجملة المبتدأ والخبر معلق عنها سادة مسد المفعول أو المفعولين، قيل: ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم إياه عليه السلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع ما لا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاسات الشدائد فى عمل السفينة وكانوا يعدونه عذاباً قيل: بعد استجهالهم (فسوف) ... الخ.

يعنى أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق بى. (فسوف تعلمون) من يعذب ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه(٢)، وفيه تهديد وترهيب.

---

(١) الكشاف الزمخشرى حـ٢ ص ٢٦٩ وانظر روح المعانى حـ ١٢ ص ٥١.

(٢) روح المعانى حـ ١٢ ص ٥١ - ٥٢.

وفيه من المجاز ما لا يخفى، وتخصيصه بالمؤجل، وإيراد الأول بالإتيان غاية الجزالة، وفيه أسلوب الحكيم على وزان قوله تعالى: (إنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين وفى قوله: تعلمون، يأتيه، يخزيه، ويحل، أفعال مضارعة تفيد استحضار الصورة وتجددها.

وفى قوله: ويحل وصل بين الجملة الثانية والأولى فى قوله: فسوف تعلمون ..... للتناسب فى الخبرية، وهذا الموضع يعرف بالتوسط بين الكمالين، والجملة خبرية للتهديد. وفى قوله: يأتيه عذاب يخزيه كناية عن الفضيحة والذل فى الدنيا، وفيه مجاز عقلى علاقته المفعولية (يأتيه عذاب) (يخزيه) مجاز عقلى علاقته الفاعلية. وفى قوله: عذاب مقيم، كناية عن العذاب فى الآخرة. وفى قوله: (ويحل عليه عذاب) مجاز عقلى علاقته الفاعلية.

الأفكار الأساسية التى اشتملت عليها الآيات من (٤٠ - ٤٣) هى:

١- العلامة التى أخبر بها الحق تبارك وتعالى نبيه نوح عليه السلام فى قوله تعالى: (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك) للركوب فى السفينة.

٢- استثناء من سبق عليه القول من العاصين بعدم الركوب فى السفينة.

٣- لم يركب معه السفينة إلا قليل من قومه.

٤- قول نوح لمن معه، اركبوا السفينة بسم الله مجريها ومرساها، إنه هو الغفور الرحيم.

٥- حال السفينة فى البحر وهى تجرى كالجبال الشامخة القوية ثم نداء نوح ابنه للركوب معهم برفق واستعطاف تغلبها عاطفة الأبوة، وينهاه عن العصيان لأوامر الحق تبارك وتعالى.

٦- عناد الابن ورده على هذا النداء بقوله تعالى:
(سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء).

٧- رد نوح عليه السلام فى قوله تعالى: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم).

٨- حال بينهما الموج فكان من المغرقين.

«حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل».

(٤٠ هـود)

التحليل والدراسة والصور البلاغية:

(حتى إذا جاء أمرنا) غاية لقوله سبحانه (يصنع الفلك) و(حتى) إما جاره متعلقة به، و(إذا) لمجرد الظرفية، وإما ابتدائية داخلة على الجملة من الشرط والجزاء، والجملة لا محل لها من الأعراب، وحال من (يصنع) كأنه قال: يصنعها[1]. وفى قوله: (يصنع الفلك) تعبير بالاسم المظهر بدلاً من المضمر زيادة فى التمكن والتوكيد (جاء أمرنا) والأمر إما واحد الأوامر، أى الأمر بركوب السفينة، أو بالفوران، أو للسحاب بالإرسال أو للملائكة بالتصرف فيما يراد، أو نحو ذلك، وإما واحد الأمور وهو الشأن أعنى نزول العذاب بهم.

(وفار التنور) أى نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها، وفيه من الاستعارة ما لا يخفى وفيه مجاز مرسل علاقة تلازم ويصح أن تكون علاقته المسببية لأن الفوران مترتب على اتقاد التنور.

والمراد من التنور تنور الخبز عند الجمهور، ورويت فى التنور روايات كثيرة، وقيل: ليس المراد به تنوراً معيناً بل الجنس، والمراد فار الماء من التنانير، وفى ذلك من عجيب القدرة ما لا يخفى، ولا تنافى بين هذا

(١) الكشاف المجلد الثانى ص ٢٦٩، وانظر التفسير الكبير للرازى جـ ٩ ص ٢٢٥، وروح المعانى جـ ١٢ ص ٥٢.

وقوله سبحانه (وفجرنا الأرض عيونا) إذ يمكن أن يكون التفجير غير الفوران فحصل الفوران للتنور والتفجير للأرض، أو يراد بالأرض أماكن التنانير، ووزنه تفعول من النور، وأصله تنوور فقلبت الواو الأولى همزة لانضمامها، ثم حذفت تخفيفاً، ثم شددت النون عوضاً عما حذف ونقل هذا عن ثعلب، وعن ابن عباس وعكرمة والزهرى أن (التنور) وجه الأرض، وعن قتادة أنه أشرف موضع منها، أى أعلاه وأرفعه، وهذا يوحى بوصول الماء إلى أعلى ارتفاع فى الأرض.

وأخرج ابن حرير، وأبو الشيخ وغيرهما[1] عن على كرم الله وجهه أنه تنوير الصبح، والظاهر أنه لم يستعمل فى اللغة الأعجمية بهذه المعانى الأخيرة، وجوز أن يكون فوران التنور مجازا عن ظهور العذاب وشدة الهول، وهذا كما جاء فى الخبر، حمى الوطيس مجازاً عن شدة الحرب، وليس بين الجملتين كثير فرق فى المعنى، وهو معنى حسن لكنه بعيد عما جاءت به الأخبار.

(قلنا احمل فيها) أى فى الفلك، وأنث الضمير لأنه بمعنى السفينة، والجملة استئناف أو جواب إذا (من كل) أى من كل نوع من الحيوانات ينتفع به الذين ينجون من الفرق وذراريهم بعده، والجار والمجرور متعلق - باحمل - أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله أعنى قوله تعالى: (زوجين) وهو تثنية زوج والمراد به الواحد المزدوج بآخر من جنسه، فالذكر زوج للأنثى، كما هى زوج له، وقد يطلق على مجموعهما وليس بمراد، وإلا لزم أن يحمل من كل صنف أربعة ولئلا يراد ذلك وصف بقوله تعالى: (اثنين) وحاصل المعنى

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٢

احمل ذكرا وأنثى من كل نوع الحيوانات، وقرأ الأكثرون (من كل زوجين) بالإضافة، فاثنين على هذا مفعول - احمل - (من كل زوجين) حال منه، ولو أخر لكان صفة له، أى احمل اثنين من كل زوجين، أى صنف ذكر وصنف أنثى، وقيل: (من) زائدة وما بعدها مفعول احمل، و(اثنين) نعت لزوجين بناء على جواز زيادة (من) فى الموجب[1].

و(أهلك) عطف على زوجين أو على اثنين، والمراد بأهله على ما فى بعض الآثار امرأته المسلمة وبنوه منها وهم (سام وحام ويافث).

(إلا من سبق عليه القول) بأنه من المغرقين بظلمهم وذلك فى قوله تعالى: (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) والمراد زوجة له أخرى تسمى (واعلة) وابنه منها (كنعان)[2] وكانا كافرين، وفى هذا دلالة على أن الأنبياء عليهم السلام يحل لهم نكاح الكافرة بخلاف نبينا صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: (يا أيها النبى إنا أحلنا لك) الآية، والاستثناء جوز أن يكون متصلا إن أريد بالأهل الأهل إيمانا، وأن يكون منقطعا إن أريد به الأهل قرابة، ويكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة إلى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجئ بعلى لكون السابق ضاراً لهم، كما جئ باللام فيما هو نافع فى قوله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) وقوله سبحانه (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى)، (ومن آمن) عطف على الأهل أى والمؤمنين من غيرهم. وإيثار صيغة الافراد فى (آمن) محافظة على لفظ (من) للإيذان بالقلة كما أفصح عن ذلك قوله تعالى (وما آمن معه إلا قليل) ويرده عطف (ومن آمن) على الأهل

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ جـ ١٢.

إلا أن يكون الأهل بمعنى الزوجة، فإنه قد ثبت بهذا المعنى لكن قيل: إنه بخلاف الظاهر والاستثناء عليه منقطع أيضا.

ويوجد وصل بين جملتى (ومن آمن) و(وما آمن معه إلا قليل) للتناسب فى الخبرية، وهو ما يعرف عند البلاغين بالتوسط بين الكمالين.

ويوجد وصل أيضاً فى الجملة السابقة بين قوله تعالى: (احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك) أى واحمل أهلك، وهو ما يعرف بالتوسط بين الكمالين للاتفاق فى الانشائية

«وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم» (٤١ هود).

التحليل والدراسة والصور البلاغة:

(وقال) أى نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ قوله تعالى: (إن ربى لغفور رحيم) وقيل: الضمير لله تعالى، وفيه أنه لو كان كذلك لكان المناسب إن ربكم... الخ، ولعل هذا القول بعد إدخال ما أمر بحمله فى الفلك من الأزواج كأنه قيل: فحمل الأزواج حسبما أمر أو أدخلها فى الفلك، وقال للمؤمنين: (اركبوا فيها) أى صيروا فيها، وجعل ذلك ركوباً لأنها فى الماء كالمركوب فى الأرض ففيه استعارة تبعية فى الحرف (فى) من حيث تشبيه الصيرورة فيها بالركوب، وقيل: استعارة مكنية والتعدية بفى لاعتبار الصيرورة وإلا فالفعل يتعدى بنفسه، ويذكر صاحب روح المعانى[1] قول بعض المحققين: الركوب العلو على شئ متحرك ويتعدى بنفسه واستعماله.

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٦.

أما الراغب الأصفهانى[1] فيقول: الركوب فى الأصل كون الإنسان على ظهر حيوان، وقد يستعمل فى السفينة وفيه تأكيد كما صرح به بعض العلماء (بسم الله) حال من فاعل (اركبوا) والباء للملابسة، ولما كانت ملابسة اسم الله عز اسمه بذكره قالوا: المعنى اركبوا مسمين الله، وجوزا أن تكون الحال محذوفة وهذا معمول لها ساد مسدها، ولذلك سموه حالا، والأصل (اركبوا) قائلين (بسم الله) (مجريها ومرساها) نصب على الظرفية أى وقت إجرائها وإرسائها على أنهما اسما زمان أو مصدران ميميان بمعنى الاجراء والارساء، ويقدر مضاف محذوف وهو وقت، كما فى قولك: أتيتك خفوق النجم، فإن التقدير وقت خفوقه، إلا أنه لما حذف المضاف سد المضاف إليه مسده وانتصب انتصابه وهو كثير فى المصادر، ويجوز أن يكونا اسمى مكان وانتصابهما بالاستقرار الذى تعلق به الجار والمجرور أو بقائلين، ولا يجوز أن يكون - باركبوا - إذ ليس المعنى على (اركبوا) فى وقت الاجراء والاسراء، أو فى مكانهما وإنما المعنى متبركين أو قائلين فيهما، وتعقب القول بانتصابهما مطلقاً بأنهما محدودان ومحدود المكان لابد له من فى، وبعضهم قال: يجوز النصب فى مثل ذلك بما فيه من الابهام، وجوز رفعهما فاعلين بالظرف لاعتماده على ذى الحال، أو على أنهما مبتدأ ومعطوف عليه (بسم الله) خبراً، والخبر محذوف تقديره متحققان ونحوه وهو صلة لهما، والجملة إما مقتضية منقطعة عما قبلها لاختلافهما خبراً وطلباً على أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب فى السفينة، ثم أخبرهم بأن إجراءها وإرساءها بسم الله تعالى أو بأن إجراءها وإرساءها باسمه تعالى متحققان لا يشك فيهما، وفى ذلك حث على الركوب وإزالة لما عسى يختلج فى قلوبهم من خوف

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٦.

الغرق ونحوه وإما فى موضع الحال من ضمير الفلك، أى اركبوا فيها مجراة ومرساة (بسم الله) وهى حال مقدرة إذ لا إجراء ولا إرساء وقت الركوب كذا قيل، وتعقبه فى التقريب بأن الحال إنما تكون مقدرة إذا كانت مفردة كمجراة أما إذا كانت جملة فلا، لأن معنى الجملة اركبوا واجراؤها (بسم الله) وهذا واقع حال الركوب[1].

(إن ربى لغفور رحيم) قيل: الجملة مستأنفة لبيان الموجب أى لولا مغفرته لفرطانكم ورحمته إياكم لما أنجاكم من هذه الطامة إيمانكم، وفيه دلالة على أن نجاتهم لم تكن عن استحقاق بسبب أنهم كانوا مؤمنين، بل بمحض رحمة الله تعالى وغفرانه[2]. لم يكن نوح عليه السلام متردداً أو شاكا فى الحكم لكن باعتبار أن الخبر واقع لا محالة فجاء بهذه المؤكدات الثلاثة. ووقع الطباق بين مجريها ومرساها، فالجريان حركة والرسو سكون، وأيضاً وقع بينهما سجع.

وهناك علاقة تلازم بين الغفران والرحمة فى قوله تعالى: (إن ربى لغفور رحيم)

«وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين» (٤٢ هود).

التحليل والدراسة والصور البلاغية:

(وهى تجرى بهم فى موج كالجبال): جوز فيه ثلاثة أوجه:

---

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٥٧.

الأول: أن يكون مستأنفاً.

الثاني: أن يكون حالاً من الضمير المستتر في (بسم اللـه) أى جريانها استقر (بسم الله) حال كونها جارية.

الثالث: أنه حال من شئ محذوف دل عليه السياق أى فاركبوا فيها جارية، والفاء مقدرة للعطف و(بهم) متعلق بتجرى – أو بمحذوف أى ملتبسة، والمضارع لحكاية الحال الماضية ولا معنى للحالية من الضمير المستتر فى الحال الأولى كما لا يخفى، والموج ما ارتفع من الماء عند اضطرابه، واحده موجه.

(كالجبال) فى موضع الصفة لموج أى فى موج مرتفع متفاوت فى الارتفاع متراكم، قيل: إنها جرت بهم فى موج كذلك[1].

(ونادى نوح ابنه) فإن ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر إذ حينئذ يمكن جريان ما جرى بين نوح عليه السلام وبين ابنه من المفاوضة والاستدعاء إلى السفينة، والجواب بالاعتصام بالجبل. ويذكر صاحب روح المعانى[2]: قول بعض المحققين، إن هذا النداء إنما كان قبل الركوب فى السفينة والواو لا تدل على الترتيب.

(وكان فى معزل) أى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه، والمراد بُعده عنهم إما حساً أو معنى، وحاصله المخالفة لهم فى الدين، فمعزل بالكسر اسم مكان العزلة، وهى إما حقيقية أو مجازية، وقد يكون اسم زمان، وإذا فتح كان مصدراً، وقيل: المراد (كان فى معزل) عن

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٨.
(٢) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٨، ٥٩.

الكفار قد انفرد عنهم، وظن نوح عليه السلام أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة، وقيل: إنما ناداه لأنه كان ينافقه فظن أنه مؤمن، واختاره كثير من المحققين كالماتريدى وغيره، وقيل: كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه عليه السلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال وبلوغ السيل الزبى ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان، وقيل: لم يجزم بدخوله فى الاستثناء لما أنه كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على أنه ناداه.

(يا بنى) بفتح الباء التى هى لام الكلمة اجتزاءا بالفتحة عن الألف المبدلة من ياء الإضافة يا بنيا، وقيل: إنها سقطت لالتقائها ساكنة مع الراء الساكنة بعدها، ويؤيد الأول أنه قرئ كذلك حيث لا ساكن بعد.

وندؤه بالتصغير من باب التحنن والرأفة، وكثير ما ينادى الوالد ولده كذلك[1].

(اركب معنا) أى فى السفينة ولتعينها وللايذان بضيق المقام. حيث حال الجريض دون القريض.

(ولا تكن مع الكافرين) تأكيد للأمر وهو نهى عن مشايعة الكفرة والدخول فى غمارهم.

التشبيه فى قوله تعالى: (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) أفاد الغرض منه على أتم وجه وهو التفظيع والتهويل من أمر هذا الموج الضخم الذى يشبه الجبال فى قوته وهوله.

عطف الجملة الخبرية على الخبرية فى قوله تعالى: (وهى تجرى بهم

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٩.

فى موج كالجبال، ونادى نوح ابنه) وهو ما يعرف عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية.

ثم عطف ما جاء فى قوله تعالى: (وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين)

هذه الجملة انشائية عطفت على جمل انشائية من النداء والأمر والنهى كلها معطوفات على الجملة الانشائية السابقة فى قوله تعالى: «يا بنى أركب معنا ولا تكن مع الكافرين» وهذا ما يعرف عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الانشائية.

«قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين». (٤٣ هود)

التحليل والدراسة والصور البلاغية:

(قال سآوى) أى سأنضم (إلى جبل) من الجبال يعصمنى أى يحفظنى بارتفاعه.

(من الماء) فلا يصل إلى قال ذلك زعما منه أن ذلك كسائر المياة فى أزمنة السيل المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود إلى مرتفع وجهلا منه بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة فلابد أن يدركهم ولو كانوا فى قلل الجبال[1]. (قال) مبينا له حقيقة الحال وصارفا له عن ذلك الفكر المحال.

(لا عاصم اليوم من أمر الله) نفى لجنس العاصم المنتظم لنفى جميع

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٩.

﴿٦٥٦﴾

أفراده ذاتا وصفة للمبالغة فى نفى كون الجبل عاصما، وزاد (اليوم) للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى يتخلص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية، وعبر عن الماء بالاسم الظاهر فى محل اضماره لزيادة التقرير بأمر الله أى عذابه الذى أشير إليه أولا بقوله سبحانه: (حتى إذا جاء أمرنا) كناية عن ظهور الطوفان وتفخيما بشأنه وتهويلا لأمره وتنبيها لابنه على خطئه فى تسميته ماء وتوهمه أنه كسائر المياة التى يتخلص منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة، وتعليلاً للنفى المذكور فإن أمر الله سبحانه لا يغالب وعذابه لا يرد، وتمهيداً لحصر العصمة فى جناب الله تعالى عز جاره بالاستثناء كأنه قيل: لا عاصم من أمر الله تعالى إلا هو تعالى، وإنما قيل: (إلا من رحم) تفخيماً لشأنه الجليل جل شأنه واشعاراً بعلية رحمته بموجب سبقها غضبه، كل ذلك لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع أطماعه الفارغة وصرف عنانه عن التعلل بما لا يغنى عنه شيئاً وإرشاده إلى العياذ بالمعاذ الحق عز حماه، ولذا عدل عما يقتضيه الظاهر من الجواب بقوله: لا يعصمك الجبل منه، كذا ذكره بعض المحققين وهو أحد أوجه فى الآية وأقواها[1].

أما الوجه الآخر فيقول: إن – عاصما – بمعنى معصوم كدافق بمعنى مدفوق، وفاتن بمعنى مفتون[2].

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٦٠

ويقوى هذا ما قاله الامام الشوكانى فى فتح القدير[١]: إلا من رحم، فى موضع نصب ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصما بمعنى معصوم: أى لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله، مثل ماء دافق. وعيشة راضية وفيها قصر موصوف على صفة وطريقه النفى والاستثناء ويستعمل فى أحكام يجهلها المخاطب، ولبيان حقيقة غيبية لا يعلمها إلا الله. ومنه قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى المطعوم المكسو، والوجه الأول أولى ويكون عاصم اسم فاعل على حقيقته وهو الله سبحانه وتعالى، وبين يعصمنى وعاصم جناس اشتقاق.

(وحال بينهما الموج) أى حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق، وقيل: بين نوح وبين الجبل، والأول أولى لأنه تفرع. (فكان من المغرقين) عليه بدل على الأول لا على الثانى لأن الجبل ليس بعاصم[٢].

الأفكار الأساسية التى اشتملت عليها الآيات من (٤٤ ـ ٤٦) هى:

١- تحقق قضاء الله سبحانه وتعالى بغرق هؤلاء العصاه وهلاكهم.
٢- أمر الله للسماء والأرض فى قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء).
٣- استواء السفنية ورسوها على جبل الجودى، والدعاء على هؤلاء العصاة باخراجهم من رحمة الله.

---

(١) فتح القدير جـ ٢ ص ٥٠٠.
(٢) المصدر السابق جـ ص ٥٠٠.

٤- دعاء نوح وتضرعه للحق تبارك وتعالى فى قوله تعالى: (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين).

٥- رد الحق تبارك وتعالى فى قوله تعالى: (قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين).

٦- عتاب الحق تبارك وتعالى لنوح على ما قاله فى حق ابنه مع علمه بعصيانه وعدم طاعته لأوامر الله.

٧- اعتذار نوح عليه السلام بعد ذلك لما صدر منه.

«وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بُعدا للقوم الظالمين». (٤٤ هود)

التحليل والدراسة والصور البلاغية

(وقيل يا أرض ابلعى ماءك) يقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع، وبلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائى والفراء، والبلع الشرب، منه البالوعة وهى الموضع الذى يشرب الماء، واستعير البلع الذى هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج، وإنما إشارة إلى سرعة الاستجابة للأمر.

(ويا سماء أقلعى) الإقلاع الإمساك، يقال أقلع المطر إذا انقطع، والمعنى: أمر السماء بامساك الماء عن الإرسال، وقدم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها.

(وغيض الماء) أى نقص، يقال غاض الماء وغضته أنا.

(وقضى الأمر) أى أحكم وفرغ منه، أى أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام.

(واستوت على الجودى) أى استقرت السفينة. على الجبل المعروف بالجودى، وهو جبل بقرب الموصل[1]. وقيل (الجودى) اسم لكل جبل.

(وقيل بعدا للقوم الظالمين) القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية، وقيل هو نوح وأصحابه، والمعنى: وقيل هلاكا للقوم الظالمين، وهو من الكلمات التى تختص بدعاء السوء، ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك، وللإيماء إلى قوله: ولا تخاطبنى فى الدين ظلموا – وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة فى الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف، وتضعف عن الاتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة، الثابتى الأقدام فى علم البيان، الراسخين فى علم اللغة.

المطلعين على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب، وأشعار شعرائهم المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها[2].

(وقيل يا أرض ابلعى ماءك) (قيل) على سبيل المجاز عن الإرادة من باب ذكر المسبب وإرادة السبب لأن الإرادة تكون سبباً لوقوع القول فى الجملة، وجعل قرينة هذا المجاز خطاب الجماد وهو (يا أرض، ويا سماء) إذ يصح أن يراد حصول شئ متعلق بالجماد ولا يصح القول له ثم قال سبحانه كما ترى: (يا أرض) و(يا سماء) مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه

(١) فتح القدير جـ ٢ ص ٥٠٠.
(٢) فتح القدير جـ ٢ ص ٥٠٠ للإمام الشوكانى.

المذكور، والظاهر أنه أراد أن هناك استعارة بالكناية حيث ذكر المشبه أعنى السماء والأرض المراد منهما حصول أمر وأريد المشبه به، أعنى المأمور الموصوف بأنه لا يتأتى منه العصيان ادعاء بقرينة نسبة الخطاب إليه ودخول حرف النداء عليه. وهما من خواص المأمور المطيع، ويكون هذا تخييلا[1].

وقد يقال: أراد أن الاستعارة تصريحية تبعية فى حرف النداء بناء على تشبيه تعلق الإرادة بالمراد منه بتعلق النداء والخطاب بالمنادى المخاطب وليس بشئ إذ لا يحسن هذا التشبيه ابتداء، بل تبعاً للتشبيه الأول فكيف يجعل أصلاً لمتبوعه؟! على أن قوله للشبه المذكور يدفع هذا الحمل، ثم استعار لغور الماء فى الأرض البلع الذى هو أعمال الجاذبة فى المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفى[2]. وهذا الرأى ما نميل إليه.

وفى الكشاف: جعل البلع مستعاراً لنشف الأرض الماء وهو أولى، فإن النشف دال على جذب من أجزاء الأرض لما عليها كالبلع بالنسبة إلى الحيوان، ولأن النشف فعل الأرض والغور فعل الماء مع الطباق بين الفعلين تعدياً، ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها له بالغذاء لتقوى الأرض بالماء فى الانبات للزروع والأشجار تقوى الآكل بالطعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابلعى) لكونها موضوعة للاستعمال فى الغذاء دون الماء، ولا يخفى عليك أنه إذا اعتبر مذهب السلف فى الاستعارة يكون (ابلعى) استعارة تصريحية ومع ذلك يكون بحسب اللفظ قرينة للاستعارة بالكناية فى الماء على حد ما قالوا فى (ينقضون عهد الله) وأما إذا اعتبر مذهبه فينبغى أن يكون

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٤.

(٢) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٤.

البلع باقياً على حقيقته كالانبات في أنبت الربيع البقل وهو بعيد، أو يجعل مستعاراً لأمر متوهم كما في نطقت الحال، فيلزمه القول بالاستعارة التبعية كما هو المشهور، ثم إنه تعالى أمر على سبيل الاستعارة للتشبيه الثاني وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء.

ويرى صاحب روح المعاني:[1] أن الحاصل في لفظ (ابلعي) باعتبار جوهرة استعارة لغور الماء وباعتبار صورته أعني كونه صورة أمر استعارة أخرى لتكوين المراد وباعتبار كونه أمر خطاب ترشيح للاستعارة المكنية التي في المنادى فإن قرينتها النداء وما زاد على قرينة المكنية يكون ترشيحا لها، وأما جعل النداء استعارة تصريحية تبعية حتى يكون خطاب الأمر ترشيحاً لها فقد عرفت ما فيه، ثم قال جل وعلا (ماءك) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيها لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالملك، واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح وحاصله أن هناك مجازاً لغوياً في الهيئة الاضافية الدالة على الاختصاص الملكي، ولهذا جعل الخطاب ترشيحاً لهذه الاستعارة من حيث إن الخطاب يدل على صلوح الأرض للمالكية فما قيل: إن المجاز عقلي والعبارة مصروفة عن الظاهر ليس بشئ، ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان من المطر أو الفعل[2].

ففي (اقلعي) استعارة باعتبار جوهره وكذا باعتبار صيغته أيضاً وهي مبنية على تشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ، والخطاب فيه أيضا ترشيح

(١) روح المعاني جـ ١٢ ص ٦٤.
(٢) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٦٥.

لاستعارة النداء، والحاصل أن الكلام فيه مثل ما مر.

والحاصل أن الفعل إذا تعين لفاعل بعينه استتبع لذلك أن يترك ذكره، ويبنى الفعل لمفعوله، أو يذكر ما هو أثر لذلك الفعل على صيغة المبنى للفاعل، ويسند إلى ذلك المفعول فيكون كناية عن تخصيص الصفة التى هى الفعل بموصوفها، وهذا أولى مما قيل فى تقرير الكناية هنا: إن ترك ذكر الفاعل وبناء الفعل للمفعول من لوازم العلم بالفاعل وتعينه لفاعلية ذلك الفعل فذكر اللازم وأريد الملزوم لما أن استوت غير مبنى للمفعول - كقيل وغيض - ثم إنه تعالى ختم الكلام بالتعريض تنبيها لسالكى مسلك أولئك القوم فى تكذيب الرسل عليهم السلام ظلماً لأنفسهم لا غير ختم إظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه وأن قيامه الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهم كما يؤذن بذلك الدعاء بالهلاك بعد هلاكهم والوصف بالظلم مع تعليق الحكم به، وذكر بعضهم أن البعد فى الأصل ضد القرب وهو باعتبار المكان ويكون فى المحسوس، وقد يقال فى المعقول نحو (ضلوا ضلالاً بعيداً) واستعماله فى الهلاك مجاز. قال: ناصر الدين[1]: يقال بعد بعداً بضم فسكون وبعداً بالتحريك إذا بعد بعداً بعيداً بحيث لا يرجى عوده، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء، ولم يفرق فى القاموس بين صيغتى الفعل فى المعنيين حيث قال: البعد معروف والموت وفعلهما - ككرم، وفرح - بعداً وبعداً.

وأما النظر فيها من جهة علم المعانى وهو النظر فى مائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها، فلذلك أنه اختير (يا) دون سائر

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٥.

أخواتها لكونها أكثر فى الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به، ولم يقل (يا أرضى) بالكسر لأن الإضافة إلى نفسه جل شأنه تقتضى تشريفاً للأرض وتكريماً لها فترك إمداداً للتهاون، لم يقل يا أيتها الأرض مع كثرته فى نداء أسماء الأجناس قصداً إلى الاختصار واللاحتراز عن تكلف التنبيه المشعر بالغفلة التى لا تناسب ذلك المقام، واختير لفظ الأرض والسماء على سائر أسمائها كالمقلة، والغبراء وكالمظلة والخضراء لكونهما أخصر، وأورد فى الاستعمال وأوفى بالمطابقة، فإن تقابلهما إنما اشتهر بهذين الاسمين، واختير لفظ (ابلعى) على ابتلعى لكونه أخصر وأوفر تجانساً – باقلعى – لأن همزة الوصل إن اعتبرت تساويا فى عدد الحروف وإلا تقاربا فيه بخلاف ابتلعى.

وقيل: (ماءك) بالإفراد دون الجمع لما فيه من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء وهو الوجه فى إفراد الأرض والسماء، وإنما لم يقل (ابلعى) بدون المفعول لئلا يستلزم تركه ما ليس يراد من عموم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظراً إلى مقام عظمة الأمر المهيب وكمال انقياد المأمور، ولما علم أن المراد بلع الماء وحده علم أن المقصود بالاقلاع إمساك السماء عن إرسال الماء فلم يذكر متعلق (اقلعى) اختصاراً أو احترازاً عن الحشو المستغنى عنه وهذا هو السبب فى ترك ذكر حصول المأمور به بُعد الأمر فلم يقل (قيل يأ أرض ابلعى فبلعت)[1].

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٥.

(ويا سماء اقلعى) فقلعت لأن مقام الكبرياء وكمال الانقياد يُغنى عن ذكره الذى ربما أوهم بإمكان المخالفة، واختير غيض على غيض المشدد لكونه أخصر. وقيل: الماء دون ماء طوفان السماء، وكذا الأمر دون أمر نوح وهو إنجاز ما وعد لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك لأنه إما بدل من المضاف إليه كما هو مذهب الكوفية، وإما لأنه يغنى غناء الاضافة فى الاشارة إلى المعهود، واختير استوت على سويت أى أقرت مع كونه أنسب بأخواته المبنية للمفعول اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار أعنى الجريان منسوباً إلى السفينة على صيغة المبنى للفاعل فى قوله تعالى: (وهى تجرى بهم) مع أن (استوت) أخصر من سويت، واختير المصدر أعنى (بُعداً) على ليبعد القوم طلباً لتأكيد معنى الفعل بالمصدر مع الاختصار فى العبارة وهو نزول (بُعدا) وحده منزلة ليبعدوا بُعداً مع فائدة أخرى هى الدلالة على استحقاق الهلاك بذكر اللام وإطلاق الظلم عن مقيداته فى مقام المبالغة يفيد تناول كل نوع فيدخل فيه ظلمهم على أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم فى التكذيب من حيث تكذيبهم للرسل ظلم على أنفسهم لأن ضرره يعود إليهم، هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم، وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنه قدم النداء على الأمر فقيل: (يا أرض ابلعى، ويا سماء اقلعى) دون أن يقال: ابلعى يا أرض وأقلعى يا سماء جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه فى نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيح للاستعارة المكنية فى الأرض والسماء، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل نظراً إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولاً، ثم جعل قوله سبحانه (وغيض الماء) تابعاً لأمر الأرض والسماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها، ألا

ترى أصل الكلام[١] (قيل يا أرض ابلعى ماءك) فبلعت ماءها (ويا سماء اقلعى) عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله (وغيض الماء) النازل من السماء فغاض. وقيد الماء بالنازل وإن كان فى الآية مطلقاً.

ولهذا حمل الزمخشرى الماء على مطلقة، وأشعر كلامه بأن غيض الماء إخبار عن الحصول المأمور به (الآية) بينما رجح الطيبى ما ذهب إليه السكاكى زاعماً أن معنى الغيض حينئذ ما قاله الجوهرى، وهو عنده مخالف للمعنى الذى ذكره الزمخشرى فقال: إن إضافة الماء إلى الأرض لما كانت ترشيحاً للاستعارة تشبيها لاتصاله بها باتصال الملك بالمالك ولذا جاء بضمير الخطاب اقتضت اخراج سائر المياه سوى الذى بسببه صارت الأرض مهيأة للخطاب بمنزلة المأمور المطيع وهو المعهود فى قوله تعالى: (وفاء التنور) وبهذا الاعتبار يحصل التواغل فى تناسى التشبيه والترشيح، ولو اجريت الإضافة على غير هذا تكون كالتجريد وكم بينهما، هذا ولو حمل على العموم لاستلزم عموم ابتلاعه المياه بأسرها لورود الأمر من مقام العظمة كما علمت من كلام السكاكى وليس بذاك، وتعقبه فى الكشف بأنه دعوى بلا دليل ورد يمين إذ لا معهود[٢].

وزعم الطبرسى أن أئمة البيت رضى الله تعالى عنهم[٣]. على أن الماء المضاف هو ما نبع وفار، وأنه هو الذى ابتلع وغاض لا غير، وأن ماء السماء صار بحاراً وأنهاراً وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن ابن عباس ما يؤيده، وهذا مخالف لما يقتضيه كلام السكاكى مخالفة ظاهرة، ثم

---

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٦.

(٢) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٧.

(٣) نفس المصدر جـ ١٢ ص ٦٧.

ختمت القصة بالتعريض الذى علمته هذا كله نظر فى الآية من جانبى البلاغة، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف، وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد، بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها فما من لفظة فيها تسبق إلى أذنك إلا ومعناها أسبق إلى قلبك.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سلسلة على الاسلات كل منها كالماء فى السلاسة وكالعسل فى الحلاوة وكالنسيم فى الرقة، ولله تعالى در التنزيل ماذا اجمعت آياته[1]:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه
يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وما ذكر فى شرح مزايا هذه الآية بالنسبة إلى ما فيها من قطرة من حياض، وزهرة من رياض.

وقد ذكر ابن أبى الاصبع[2]: أن فيها عشرين ضربا من البديع مع أنها سبع عشرة لفظة، ففيها المناسبة التامة فى (ابلعى) و(أقلعى) والاستعارة فيهما والطباق بين الأرض والسماء والمجاز فى (يا سماء) فإن الحقيقة يا مطر السماء، والاشارة فى (وغيض الماء) فإنه عبر به عن معان كثيرة لأن الماء

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٨.
(٢) بديع القرآن ص ٨٠ لابن أبى الاصبع.

لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها فينتقص ما على وجه الأرض، والإرداف فى (واستوت).

والتمثيل فى (وقضى الأمر) والتعليل فإن غيض الماء علة للاستواء، وصحة التقسيم فإنه استوعب أقسام الماء حال نقصه، والاحتراس فى الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق، وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعنى والايجاز، فإنه سبحانه قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة، والتسهيم لأن أول الآية يدل على آخرها، والتهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف فى فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شئ منه، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة فى محلها مطمئنة فى مكانها والانسجام.

وزاد الجلال السيوطى: بعد أن نقل هذا عن ابن أبى الإصبع الاعتراض، وزاد آخرون أشياء كثيرة إلا أنها ككلام ابن أبى الإصبع قد أشير إليها باصبع الاعتراض، وقد ألف شيخنا علاء الدين – أعلى الله تعالى درجته فى أعلى عليين رسالة فى هذه الآية الكريمة جمع فيها ما ظهر له ووقف عليه من مزاياها فبلغ ذلك مائة وخمسين مزية، وقد تطلبت هذه الرسالة لأذكر شيئاً من لطائفها فلم أظفر بها وكأن طوفان الحوادث أغرقها. **«ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين».** (٤٥ هود)

التحليل والدراسة والصور البلاغية:

(ونادى نوح ربه) أى أراد ذلك بدليل تفريع قوله سبحانه (فقال رب إن

﴿٦٦٨﴾

ابنى من أهلى) عليه. وقيل: النداء على حقيقته والعطف بالفاء لكون حق التفصيل يعقب الاجمال.

(وإن وعدك الحق) أى وإن وعدك ذلك أو كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولاً أولياً.

(وأنت أحكم الحاكمين) لأنك أعلمهم وأعدلهم، وقد ذكر أنه إذا بنى أفعل من الشئ الممتنع من التفضيل والزيادة يعتبر فيما يناسب معناه معنى الممتنع.

وقال العز بن عبد السلام[1] فى أماليه: إن هذا ونحوه من أرحم الراحمين وأحسن الخالقين مشكل لأن أفعل لا يضاف إلا إلى جنسه، وهنا ليس كذلك لأن الخلق من الله سبحانه بمعنى الإيجاد ومن غيره بمعنى الكسب.

(ونادى نوح ربه) فهذا النداء منه عليه السلام يقطر منه الاستعطاف وجميل التوسل إلى من عهده منعماً مفضلاً فى شأنه أولاً وآخراً، وهو على طريقة دعاء أيوب عليه السلام (إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) فيكون ذلك قبل الغرق، والواو لا تقتضى الترتيب، وقيل: إن النداء إنما كان بعده، والمقصود منه الاستفسار عن سبب عدم إنجائه مع سبق وعده تعالى بإنجاء أهله وهو منهم.

«قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين». (٤٦ هود)

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٨.

التحليل والدارسة والصور البلاغة:

(قال) استئناف بيانى كأنه قيل ما قال له ربه سبحانه حين نـاداه بذلك؟ فقيل: قال: (يا نوح إنه ليس من أهلك) أى ليس منهم أصـلاً لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين مسلم وكافر ولذا لم يتوارثا وقد ذكروا أن قرابة الدين أقرب من قرابة النسب كما أشار إلى ذلك أبو نواس بقوله:

كـــانت مـــودة ســـلمان لـــه نســـبا

ولـم يكـن بيـن نـوح وابنـه رحـم

أو (ليس من أهلك) الذين أمرتك بحملهم فى الفك لخروجه عنهم بالاستثناء[1]، ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله سبحانه (إنه عمل غير صالح) وأصله إنه ذو عمل فاسد، فحذف ذو للمبالغة بجعله عين عمله لمداومته عليه، ولا يقدر المضاف لأنه حينئذ تفوت المبالغة المقصودة منه، ونظير ذلك ما جاء فى قوله الخنساء حين رثت أخاها صخرا:

ترتـع مـا رتعـت حتـى إذا ادكـرت

فإنمـــا هـــى إقبـــال وإدبـــار

وأبدل فاسد بغير - صالح - إما لأن الفاسد ربما يطلق على مافسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصاً فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالمظالم.

وإما للتلويح بأن نجاة من نجا إنما هو لصلاحه. (فلا تسألن) أى إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب منى، وهو نهى فيه عتاب بكل رفق وتلطف. (ما ليس لك به علم) أى مطلباً لا تعلم يقيناً أن حصوله صواب وموافق

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٦٨، ٦٩.

للحكمة على تقدير كون (ما) عبارة عن المسئول الذى هو مفعول للسؤال، أو طلباً لا تعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى وارداً فى كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال، قاله شيخ الاسلام[1].

وسمى النداء سؤالاً لتضمنه إياه وإن لم يصرح به كما لا يخفى، والآية ظاهره فى أن نداءه عليه السلام لم يكن استفساراً عن سبب إنجائه مع تحقيق سبب الإنجاء فيما عنده.

(إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) فالمراد النهى عن وقوع السؤال فى المستقبل بعد أن أعلمه سبحانه باطن أمره، وأنه إن وقع فى المستقبل فى السؤال كان من الجاهلين، والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمت العصمة، والموعظة لا تستدعى وقوع ذنب بل المقصد منها أن لا يقع الذنب فى الاستقبال، ولذلك امتثل عليه السلام واستعاذ بالله سبحانه أن يقع منه ما نهى عنه. وفى قوله تعالى: (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) فصل بين الجملتين لوجود كمال الاتصال لأن الجملة الثانية (إنه عمل غير صالح) جاءت مؤكدة للجملة الأولى (إنه ليس من أهلك) وهما خبريتان لفظاً ومعنى، ثم عطفت الجملة التالية عليهما فى قوله (فلا تسألن ما ليس لك به علم) بالفاء العاطفة التى تفيد الترتيب مع التعقيب.

وهذا الوصل بين الجمل الانشائية وقع بين النداء والنهى، وهو ما يعرف بالتوسط بين الكمالين.

---

(١) روح المعانى جـ ١٢ ص ٧٠.

ثم فصل بين هذه الجملة وقوله (إنـى إعظـك أن تكـون مـن الجـاهلين) لأنها مؤكدة للجملة السابقة عليها وهو ما يعرف بكمال الاتصال.

وبا لله التوفيق...

المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم

١- بديع القرآن لابن أبى الاصبع

٢- الترمذى

٣- التفسير الكبير الرازى

٤- روح المعانى للألوسى

٥- صفوت التفاسير محمد على الصابونى

٦- الفتح القدير للشوكانى

٧- الكشاف الزمخشرى